مصطلحات التصوف الإسلامي في الدراسات الاستشراقية[1]

لوي ماسينيون[2]

"منذ ستين سنة، تعدّدت دراسات المستشرقين عن مصطلحات التصوف الإسلامي، وقد أخذت ثلاثة مناح تبعا لثلاثة مناهج متميزة:

- **المنحى الأول:**

ذو توجه تحليلي وتحقيقي، اهتمّ بنشر المعاجم الشرقية التامة، والمدونة بالاستناد إلى الاختيارات الشعرية والنثرية الشهيرة[3]، المصنفة في العصور الأولى، وهو المنحى الذي دشّنه 'فلوجيل' (Fleugel)، ونحا منحاه 'نيكلسون' (Nicholson).

ومن إيجابيات هذا التوجه الإثراء المباشر لمادتنا التوثيقية، غير أنه إذا كان الثراء ميزة أساسية في المعجم العام؛ فإنه يغدو عاملا ثانويا حينما يتعلق الأمر بتخصص علمي أو فني، فما يهمّ في المجالات العلمية أو الفنية هو تناسُق الأفكار بالمادة المصنفة.

ورغم أهمية هذا المنهج، فهو غير كاف في استيفاء الموضوع حقه من الدرس، إضافة إلى ذلك، فلا يتطرق 'فلوجيل' ولا 'نيكلسون' إلى المصنفات الأساسية الأكثر غنى، منها على سبيل المثال: 'حقائق التفسير' للسلمي، المصنف الذي أعيد نشره من قِبل 'البقلي'.

- **المنحى الثاني:**

ذو توجّه اختزالي وبيوغرافي، يهتمّ بدراسة المصطلحات العلمية بصفة غير مباشرة من خلال نقد موقعها ضمن البُنى الفكرية للأنساق التي توظفها.

---

[1]- نص مقتطف من كتاب ' لوي ماسينيون' (Louis Massignon) '"دراسة لأصول المعجم الخاص للتصوف الإسلامي" (Essai sur les origines du lexique technique de la mystique Musulmane)، المنشور سنة 1922 (طبعة Paul Guethner ، PARIS)'.

[2]- يعدّ لوي ماسينيون (Louis Massignon) (1883-1962) من أشهر المستشرقين الفرنسيين، أتقن عدة لغات منها العربية والفارسية والألمانية والإنجليزية، ركز معظم جهوده على دراسة آثار الحلاج، وكتب أيضا عن ابن سبعين وسلمان الفارسي، تولى رئاسة تحرير 'مجلة الدراسات الإسلامية'، وأصدر بالفرنسية 'حوليات العالم الإسلامي' إلى حدود سنة 1954.

[3]- ك'الأصمعيات'، و'المفضليات'.

ويتطلب هذا المنهج قبل كل شيء معرفة فلسفية واسعة، وهو المنهج الذي طبقه 'آسين بلاسيوس' (Asin Placios) في دراسته لفكر 'الغزالي'، وطبقه أيضا 'كارا دي فو' (Carra de Vaux) في دراسته ل 'إشراق' 'السهروردي الحلبي'.

من سلبيات هذا التوجه، أنه غالبا ما يستند – على غرار بعض مؤرخي الإسلام- إلى تصنيف عام للمذاهب والعقائد تبعا لخانات نمطية أنجزها بعض الجدليين المتمذهبين، ولقد تضاعف الاهتمام منذ عشرين سنة بنقد بعض مدارس أهل الحديث المتشبثين بحرفية النص، كما ازدادت العناية بأعمال مفكرين انتقدوا الفكر الصوفي، من أمثال 'ابن سعد'، و'ابن الجوزي'، و'ابن تيمية'، و'الذهبي'.

وغالبا ما تكون أعمال أصحاب هذا التوجه أخّاذة، غير أن تأويلهم للمذاهب والمصطلحات المستعملة بها يترجم التسرّع في بناء جدالات غير معقلنة.

● ويهتم **التوجه الثالث** بتصنيف متأنّ لمعاجم متناسقة مخصصة لجمع مصطلحات كلّ كاتب، بالاستناد إلى جرد مباشر وشامل.

وهو المنهج الذي رسّخه الألماني 'فيشر' (Fischer) منذ 1908، حين شرع في إنجاز معجم عربي علمي يرتكز في مواده على استشهادات مستخلصة من نصوص نموذجية في فصاحتها تشكّل اختيارات لأعمال متجانسة، ك'المعلقات'، و'المفضليات'، و'الحماستين'، و'مقامات الحريري' إلخ.

وتبدو أهمية هذا المنهج الخصيب – الذي طُبِّق على الشعراء لأنه يُيسِّر عزل الألفاظ الفصيحة عن نظيراتها المولدة بدواوينهم- في دراسة الأعمال الصوفية، لأن السبيل الوحيد لمعرفة طرق صياغة المتصوفة لمصطلحاتهم يتمثل في تناول أعمالهم المتتالية بالنظر إلى المراحل التي يجتازها كل صوفي، وهو المنهج الذي تبنيناه في عملنا هذا.

ويبدو من الملائم اختيار مؤلف نموذجي، تعرضت كتاباته لانتقادات متعددة عبر التاريخ.

وتقدّم لنا العصور الأولى للإسلام نماذج، ك 'المحاسبي'، و'الحلاج'، و'الغزالي' (وبدرجة أقلّ: أبو طالب المكي)، وقد وقع اختيارنا على 'الحلاج'، لأنه أبرز متصوف تناول بشكل نظري وتطبيقي: (من خلال الممارسة) الإشكالية المحورية للفكر الصوفي: وهي ظاهرة الشطح كتجربة سلوكية: العلامة البارزة ل'الجمع' المتحوّل.

هيئة التحرير